علاقة الظاهر بيبرس بإمارتى صور وبيروت وآثارها على الصليبيين بالشام

دكتورة

منيرة بنت مدعث بن منير القحطانى

أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

بالرياض

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

٢٢٨٦

المقـــدمـــــة

أصبَح بيبرس كبيرًا للمماليك البحرية بعد مصْرع أقطاي، وكان على رأْس الذين فرُّوا إلى الشام بعد تنكيل أيبك بهم، ثم أستأْمَن إلى قطز وشارَك معه في قتال التتار، وأبْلى أعظمَ البلاء، وبعد مقتل السلطان قطز اجتمَعت كلمة المماليك على تولية بيبرس البندقداري السلطنة في الحال في الصالحية، واتَّخذ طريقَه مسرعًا إلى قلعة الجبل مقر السلطنة.

ويُعَدُّ بيبرس مؤسس دولة المماليك البحرية وأهمَّ ملوكها؛ لأن أيبك وقطز كان لهما دورٌ في محاولة القضاء على البحرية والتنكيل بهم، أمَّا بيبرس فهو شديد الانتماء والولاء لهم، وقد استقرَّ في عرْش السلطنة ما يقرب من ثمانية عشر عامًا، وهو صاحب الدور الأوَّل في قتال التتار، وصدِّ غارات الصليبيين، وقام بكثيرٍ من الإصلاحات الداخليَّة.

وأصْل بيبرس من بلاد "القبجاق" شمال بحر قزوين، وهي من بلاد الترك، ووقع أسيرًا واشْتراه أحد الأمراء الصالحية، وجعَله في خدمة الملك الصالح أيوب، وهو الذي أقام الخلافة العباسيَّة بمصر سنة ٦٥٩هـــ.

وحكَم بيبرس مصر والشام، وفتَح بلاد النوبة حتى وصَل إلى دنقلة، وواصَل بعزمٍ ومَضاء حروبَ التحرير ضد بقايا التتار وجيوب الصليبيين، حتى نَجَح في تحرير إنطاكية وعددٍ من سواحل الشام؛ ولذا وصفَه بعضُ المؤرخين بأنه صلاح الدين الثاني، وتوفِّي في دمشق سنة ٦٧٦ه[1].ـــ

علاقة بيبرس بالقوى الصليبية بالشام

---

[1] سهيل طقوش- تاريخ المماليك ص١٥٩.(دار النفائس ببيروت ١٩٩٧م).

يبدو أن الصليبيين أحسوا بما جناه المسلمون من فوائد لوقوفهم على الحياد أثناء الحرب بين المماليك والمغول، وندموا على فوات فرصة التحالف مع المغول، وعلى عدم مد أيديهم بقوة لكتبغا للقضاء على دولة المماليك، وكان يتزعم القوى الصليبية بالشام حينذاك أميرى يافا وبيروت، وأخذوا يتحرشون بالمماليك، ويحاولون استفزازهم لنقض ما بينهم من عهود أبرموها أثناء الحرب بين المماليك والمغول، فأرسلوا إلى بيبرس سنة ١٢٦١م يطلبون تجديد الهدنة – رغم أن الهدنة السابقة لم تنته مدتها بعد – كما طلبوا استرجاع أسرى الفرنج الذين وقعوا في يد المسلمين في السنوات الأخيرة، وكان يتفاوض مع السلطان يوحنا كونت يافا، ويوحنا سيد بيروت، فوافق الظاهر بيبرس على مطالبهم بشرط عودة حدود أملاكهم إلى ما كانت عليه أيام حكم الناصر يوسف الأيوبي – وكانوا قد توسعوا في الشام أثناء سيطرة المغول عليها – وبالطبع طلب منهم بيبرس أيضاً إطلاق أسرى المسلمين[٢].

ولكن الصليبيين لم تكن لديهم رغبة حقيقية في طلب الصلح وعقد الهدنة، لذلك تعللوا بأن أيبك كان قد وعدهم ببلدة زرعين في الجليل، فرد عليهم الظاهر بيبرس بأن الناصر يوسف الأيوبي أعطاهم مرج عيون عوضاً عنها فكيف تطلبون العوض مرتين؟[٣]. وبينما شرع السلطان في جمع أسرى الصليبيين وسيرهم إلى مدينة نابلس لعقد الهدنة مع الصليبيين، إذا بالصليبيين يماطلون في تسليم أسرى المسلمين، لعدم رغبتهم – كما ذكرنا – في عقد الصلح، فلما طال

---

[٢]- النويري – نهاية الأرب – جـ ٣٠ ص ٤٨.

[٣]- المقريزي – السلوك ج١ ص ٤٦٤.

الوقت أمر بيبرس بنقل أسرى الصليبيين إلى دمشق، واستعمالهم في بناء عمائر دمشق(٤).

ويذكر العيني أن السلطان بيبرس عقد هدنة مع كونت يافا وسيد بيروت سنة ١٢٦١م على حكم القاعدة التي كانت مقررة لهما في الأيام الناصرية،- أي أيام الناصر يوسف - وكتب لهما منشوراً بما في يدهما من البلاد(٥).

ونؤيد ما ذهب إليه العينى لأن الفترة التالية التي شهدت مناوشات وحروب بين الظاهر بيبرس والصليبيين لم يقم فيها الجيش المصري بهجوم على أراضي يافا وبيروت، ومن المحتمل أن حاكم يافا وسيد بيروت تبادلوا ما عندهم من أسرى مع بيبرس، بينما رفضت باقي المدن والطوائف العسكرية الصليبية تسليم ما عندهم من الأسرى، ولذلك قصر بيبرس الهدنة مع يافا وبيروت، ولذلك يذكر رانسيمان أن بيبرس كان يميل إلى كونت يافا ولذلك وسطه الصليبيون في مفاوضاتهم التالية مع بيبرس(٦).

٤- النويري - نهاية الأرب - جـ ٣٠ ص ٤٨، د/ السيد الباز العريني - المغول - ص ٢٧٠.

٥ العيني- عقد الجمان - جـ١ ص ٣١٦.

٦ رانسيمان - تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٤٤، وقد استمرت هذه الهدنة مع يافا حتى توفى حاكمها يوحنا أبلين وتولى ابنه جاي ابلين الحكم سنة ١٢٦٦م ، فأرسل إلى الظاهر بيبرس يطلب منه تجديد الهدنة، ولكن السلطان علم أثناء ذلك أن حاكم يافا وأهلها يحملون الميرة والمؤن إلى عكا، وكانت شروط الهدنة تمنع ذلك، كما أقاموا في يافا حانة وأجبروا للعمل بها السبايا المسلمات، مما يعتبر نقضا للهدنة، فرفض السلطان تجديدها، وقام بفتح يافا سنة

وقد اعتبر بيبرس رفض باقي الصليبيين إعادة أسرى المسلمين نقضاً للهدنة السابقة- التى عقدت أثناء الصراع مع المغول- التي تنتهي مدتها رسمياً سنة ١٢٦٦م، ورد عليهم بتجهيز فرقة من الجند بقيادة الأمير جمال الدين المحمدي، وأرسلهم لمهاجمة الأراضي التابعة للصليبيين(٧)، ولم تشر المصادر التي أوردت نبأ هذه الغارة مثل المقريزي والنويري إلى الجهة التي توجهت إليها، إلا أننا نرجح أنها توجهت إلى الأراضي التابعة لعكا لشدة الخلاف بين بيبرس والقادة الصليبيين في عكا، وقربها من المنطقة التي يعسكر فيها بيبرس بباقي جيشه، وقد عاد الجيش المملوكي من هجومه بكثير من الأسرى والغنائم(٨).

وأراد الصليبيون الرد على هذا الهجوم فقاموا بالإغارة على منطقة الجولان، وكان يقطنها حينذاك بعض التركمان الذين فروا أمام الغزو المغولي للعراق والشام، فخرج الصليبيون من حصن صفد قاصدين الإغارة على الجولان وأخذ من فيها على غرة، ولكن أنباء تحرك الصليبيين تسربت إلى التركمان فتأهبوا لهم وتيقظوا، وأعدوا كميناً لهم، فلما وصل الصليبيون إلى المنطقة انقض عليهم التركمان فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأسروا جماعة من قادتهم، وفر الباقون، بينما افتدى

٦٦٦هـ / ١٢٦٧م . أبو المحاسن – المنهل الصافي – جـ ٣ ص ٤٥٤ ، د/ نعمان الطيب سليمان – جهود المماليك في تصفية الوجود الصليبي- ص ٦٧ . أما بيروت فتم تجديد هدنتها كما سنذكر فيما بعد.

٧ المقريزي – جـ ١ ص ٤٦٤، النويري جـ ٣٠ ص ٤٨.

٨ النويري – جـ ٣٠ ص ٤٨.

الأسرى أنفسهم بأموال طائلة[٩].

وقد أدت هذه الخسائر في الجانب الصليبي إلى طلبهم الصلح مع بيبرس مرة أخرى سنة ١٢٦٣م، وخاصة أن بيبرس توجه بقواته وأقام معسكره في جبل الطور بالقرب من عكا لمهاجمة البلاد الصليبية، فأسرع الصليبيون في طلب عقد الهدنة ،وأعلنوا ندمهم على فسخ الهدنة السابقة، وعدم إتمام الهدنة مع بيبرس سنة ١٢٦١م.

وقد نقل المقريزي الحوار الذي دار بين بيبرس ورسل الصليبيين في معسكره إذ قال لهم بيبرس: ما تقولون؟، قالوا: نتمسك بالهدنة التي بيننا، فقال السلطان: لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان، وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحاراً؟، ونحن لما حضرنا إلى هنا، ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره، ولانهب لكم مال ولا ماشية، ولا أسر لكم أسير، وأنتم منعتم الجلب والميرة عن العسكر، وحرمتم خروج شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك، ومن انفرد من غلمان العسكر أسرتموه، وسيرتم إلينا نسخة يمين حلفنا عليها، وسيرنا نسخة يمين من عندنا لم تحلفوا عليها... وسيرنا الأساري إلى نابلس ومنها إلى دمشق، وما سيرتم أنتم أحد، وكل بيت يحيل على الآخر[١٠]، وما سيرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد، وإقامة الحجة عليكم، وسيرنا كمال الدين بن شيث رسولاً يعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحداً، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم.... ثم إنا سيرنا رسلاً إلى بلاد السلاجقة

٩- العينى – جـ ١ ص ٣١٨.

١٠- يقصد بذلك كل حاكم يحيل موضوع الأسرى إلى حاكم آخر.

الروم، وكتبنا إليكم بتسفيرهم في البحر، فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرص، فسافروا بكتابكم وأمانكم فأخذوا وقيدوا، وضيق عليهم وأتلف أحدهم، فإن كان هذا برضاكم فقبيح أن يعتمدوا هذا الاعتماد، هذا مع إحساننا إلى رسلكم وتجاركم، والوفاء أحد أركان الملك، وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذي ومازالت الحرب قائمة والرسل تتردد، وما القدرة على الرسول بشيء يسكن غيظاً، وإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص في حرمتكم....وأنتم في أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، وخرجتم جميعكم في خدمته ونجدته، وجرى ما جرى من خذلانه، وقتلكم وأسركم، وقد أنتقضت تلك الدولة، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عن فتوحه البلاد، وأحسن إليكم، فقابلتم ذلك بأن رحتم إلى الرايدافرنس[١١].وساعدتموه وأتيتم بصحبته إلى مصر حتى جرى مأجرى من القتل والأسر فاي مرة وفيتم فيها لمملكة مصر؟ أم أي حركة أفلحتم فيها؟.

ثم اختتم السلطان بيبرس حديثه لرسل الصليبيين بقوله:"ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإني لا أقبل غير ذلك[١٢].

فلما رأي قادة الصليبيين موقف بيبرس وسطوا بينهم وبينه يوحنا كونت يافا لما بينهم من مودة، فحمل إلى السلطان بيبرس هدية،

١١- المقصود به لوبس التاسع ملك فرنسا، وقائد الحملة الصليبية السابعة.

١٢- المقريزي – جـ ١ ص ٤٨٤، كما أورد النويري فقرات من هذا الحوار . نهاية الأرب – جـ ٣٠ ص ٢٥٦.

وتفاوض معه حول عقد الهدنة مع الصليبيين، فوعده السلطان بيبرس بعقد الهدنة، وتبادل الأسرى، إلا أن الداوية والاسبتارية رفضوا مرة أخرى التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة، ولما لهم من أهمية مادية للطائفتين، وعندما علم بيبرس بهذا النهم الاستغلالي من جانب الداوية والاسبتارية قطع المفاوضات، وتوجه بقواته لغزو أراضي الصليبيين[١٣].

وقد بدأ بيبرس هجومه بمنطقة الجليل فأغار عل الناصرة، ثم هاجم عكا وحرق ما حولها من الأبراج والأسوار، وأصيب أثناء القتال جفري سارجينس – نائب الملك لويس التاسع–بجرح خطير، ثم عاد السلطان إلى بيت المقدس محملاً بالغنائم والأسرى[١٤].

واستمرت سنة ١٢٦٣م المناوشات والهجمات المحدودة بين الطرفين، في الوقت الذي حافظ فيه بيبرس على الهدنة مع فيليب مونتفورت حاكم صور، ويوحنا صاحب يافا، وظلت الرسل متبادلة بينهم حتى اتهم الصليبيون حاكم صور ويافا بالتعاون مع بيبرس ضدهم[١٥].

ثم رأي بيبرس أن هذه الهجمات لم تعد كافية لردعهم، وأنه لابد من القيام بحرب شاملة ضدهم، وبينما كان بيبرس يجهز قواته عرض عليه الصليبيون سنة ١٢٦٤م عقد هدنة عدة شهور، يتمكنون فيها من زراعة ما تحت أيديهم من أراضي لتوفير المؤن والغلال لهم، فأذن لهم السلطان بها، فزرعوا أرضهم وانتهت الهدنة بحصاد المحصول[١٦].

---

[١٣]– د/ السيد الباز العريني – المغول – ص ٢٧٠.

[١٤]– العينى – جـ ١ ص ٣٥٦.

[١٥]–المقريزي – جـ ١ ص ٤٩٥ ، رانسيمان –جـ ٣ ص ٥٤٥.

[١٦]– المقريزي – ج ١ ص ٥٠٥.

وفي مستهل سنة ١٢٦٥ م بدأ بيبرس هجومه الشامل على الصليبيين، وخرج في جيش كثيف فسيطر على قيسارية وحيفا وأرسوف، وأمر بهدم أسوار وقلاع هذه البلاد، حتى لا تتخذ حصوناً مرة أخرى، كما توجه إلى عكا، ولكنه تراجع عن حصارها لعلمه بوصول الملك هيو الثالث ملك قبرص والوصي على عكا على رأس أسطول قوي للدفاع عنها، فعاد بيبرس إلى مصر، بعد أن ترك في الشام عسكراً يكفي لحماية البلاد التي فتحها حديثا(١٧).

وعاود بيبرس هجومه على الصليبيين مرة أخرى في العام التالي سنة ١٢٦٦م، فهاجم عكا، وعندما وجدها قوية التحصين توجه إلى قلعة صفد التابعة للداوية، فسيطر عليها رغم مقاومة حاميتها العنيفة، ثم سيطر على حصن هونين وتبنين ومدينة الرملة، ثم قام بتدمير قرية قارا بين حمص ودمشق، وكان سكانها من المسيحيين المحليين – السريان– إذ لم يغفر بيبرس لسكانها موقفهم من المسلمين أيام الغزو المغولي بقيادة هولاكو وكتبغا، ومشاركتهم في قتل المسلمين ونهب أموالهم(١٨).

كما أرسل السلطان جيشاً آخر بقيادة الأمير قلاوون للهجوم على

١٧- النويرى – ج٣٠، ص٢٦٨.

١٨- المقريزي – ج ١ ص ٥٥٣ ، رانسيمان – ج ٣ ص ٥٥٢ ، ويذكر العينى أن سبب هجوم السلطان على قارا أن أهل الضياع المسلمين حول قارا اشتكوا إلى السلطان أن أهل قارا يعدون عليهم ويتخطفونهم ، ويبيعون من وقع لهم إلى الفرنج بحصن عكار، فأمر السلطان العسكر بنهبهم وقتل رجالهم وسبي نسائهم وأطفالهم . عقد الجمان – جـ ١ ص ٤٢٥، ويذكر النويري حادثة مشابهة لما رواه العينى . نهاية الأرب – ج٣٠ ص ٢٩٢.

إمارة طرابلس، نجح في السيطرة على قلاع عرقة وحلباء والقليعات، وهي المراكز الثلاثة التي كانت بمثابة شبه مثلث يحمي طرابلس من جهة الشمال الشرقي فجاء الاستيلاء عليها مهداً لطرابلس، ولذلك يقول المقريزي :" وأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة.

كما قام الأمير قلاوون يسانده جيش المنصور أمير حمص في صيف سنة ١٢٦٦م بالهجوم على مملكة أرمينية الصغرى لمساندتها للمغول والصليبيين ضد المسلمين، وانتصروا عليها قرب قلعة دربساك، وقتل أحد أبناء ملكها هيثوم الأول، وأسر الابن الثاني، بينما كان الملك يستجدي مساعدة المغول في تبريز[١٩].

وبذلك فقد الصليبيون وخاصة في أنطاكية مساعدات مملكة أرمينية الصغرى، التي هلك معظم جيشها على يد الجيش المصري في دربساك، وأضطر ملكها أن يتنازل عن عدة حصون مقابل استرداد ابنه الأسير من المماليك، مما ساعد بيبرس في السيطرة على أنطاكية بعد قليل[٢٠].

وقد أدت هذه الانتصارات المتتالية للسلطان بيبرس في سنة ١٢٦٦م إلى أن هرع إليه مقدم الاسبتارية في القلاع القريبة من حمص مثل الأكراد والمرقب يطلب عقد الهدنة مع السلطان، واستقرار الصلح بينهم، فاشترط عليه السلطان وقف دفع الإتاوة التي تدفعها لهم مملكة حماة[٢١]، وكانت أربعة آلاف دينار، وبلاد أبي قبيس – في مقابلة حصن

١٩- أبو المحاسن – النجوم الزاهرة – جـ٧ ص ١٤٠، ابن عبدالظاهر – الروض الزاهر، ص٣٢٨.

٢٠- رانسيمان – جـ ٣ ص ٥٥٤.

٢١- كان الملك المنصور محمد الأيوبي من أشد الحكام ولاءاً للظاهر بيبرس ،

شيزر– وكانت ثمانمائة دينار، كما طلب إبطال القطيعة التي يأخذونها من طائفة الإسماعيلية وهي ألف ومائتا دينار، ومائة مد حنطة وشعير، فأجابوا بإبطال هذه القطائع والإتاوات، فوافق السلطان على عقد الهدنة معهم، ووقف القتال، وقد تضمنت هذه الهدنة شرطاً لم يسبق ذكره في الهدن السابقة، وهو من حق السلطان بيبرس فسخ الهدنة متى أراد، ويعلمهم قبل ذلك بمدة [٢٢] ولم تحدد المصادر هذه المدة، وربما كانت شهراً، حيث أنها كافية لاستعداد كل طرف للقتال، وعودة المسافرين والتجار من بلاد الطرف الآخر إذا كانوا في رحلة إليه.

ولعل ورود هذا الشرط بالهدنة أكبر دليل على مدى الضعف الذي وصل إليه حال الصليبيين بالشام، وهم الذين كانوا يضعون الشروط على هواهم قبل ذلك، بل ويفسخون الهدنة متى أرادوا دون أن يعملوا حساباً للقوى الإسلامية.

وبالطبع لم يكن لهذه الهدنة مدة محددة بعد ذكر هذا الشرط فيها، وقد ترتب على هذه الهدنة قيام أمراء طائفة الإسماعيلية في الشام بإرسال جملة من الذهب والمال للسلطان بيبرس، وقالوا له: هذا المال الذي كنا

وشارك في الحروب جنباً إلى جنب مع الجيش المملوكي ، وقام بتنفيذ أوامر الظاهر بيبرس مهما كانت صعوبتها ، مما أدى إلى بقاء الظاهر بيبرس على مملكة حماة الأيوبية رغم قضائه على الممالك الأيوبية الأخرى مثل الكرك وحمص ، وهو ما ساعد في استمرار مملكة حماة أكثر من مائة عام ، ولذلك نرى الظاهر بيبرس يقف بجانبها ضد الصليبيين ، ويسقط ما تدفعه من إتاوة للاسبتارية. د/ عبد الرحمن أمين صادق – علاقة مملكة حماة بدولة سلاطين المماليك– ص ٣٦ وما بعدها.

[٢٢]– المقريزي – جـ ١ ص ٥٥٠.

نحمله قطيعة للإفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، لينفق في المجاهدين[٢٣].

وهذا يدل أيضاً على مدى ضعف طائفة الإسماعيلية في الشام أمام الظاهر بيبرس، فقد كانت هذه الطائفة تفرض الإتاوات على جميع من حولهم حتى الخلفاء اتقاء لشرورهم، إذ اشتهروا بالاغتيالات السياسية، وقد حاول الناصر صلاح الدين القضاء عليهم ولكنه عجز عن ذلك، حتى جاء الظاهر بيبرس وشتت شملهم، وأخرجهم من حصونهم في بلاد الشام، وأقطعهم بدلاً منها أراضي في مصر[٢٤].

الهدنة بين الظاهر بيبرس وحصني الأكراد والمرقب [٢٥]:

رغم عقد هدنة سنة ١٢٦٦م بين السلطان بيبرس والاسبتارية في حصني الأكراد والمرقب إلا أن القلق سرعان ما انتابهم لعدم تحديد هذه الهدنة بمدة، وكان من حق السلطان فسخها في أي وقت – كما ذكرنا – فأرسلوا في رمضان سنة ٦٦٥هـ ١٢٦٧م رسلهم إلى السلطان، يطلبون الصلح وعقد الهدنة على مدة معلومة، وأن يحلف السلطان لهم على هذه المدة[٢٦].

٢٣– المقريزي – جـ١ ص ٥٥٧.

٢٤ د/ سعيد عاشور – الظاهر بيبرس – ص ٨٠.

٢٥ يقع حصن الأكراد غرب مدينة حمص على الطريق بينها وبين طرابلس ، وسمى بهذا الاسم لأن أمير حمص سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م أسس هذا الحصن وأسكن به حامية من الأكراد ، ويقع حصن المرقب على ساحل البحر المتوسط بالقرب من مدينة بانياس. ياقوت الحموي – معجم البلدان– جـ ٢ ص ٢٦٤، جـ٥ ص ١٠٨.

٢٦ النويري – نهاية الأرب– جـ ٣٠ ص ٢٩٦

وبعد مفاوضات وإلحاح من جانب رسل الاسبتارية وافق السلطان على عقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات(٢٧).

وتضمنت إبطال القطائع (الإتاوات) التي يأخذها الاسبتارية من بلاد شيزر وأفامية، وكانت ستمائة دينار صورية لكل منهما، وعينتاب وكانت تبلغ خمسمائة دينار صورية، وعن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم(٢٨)، وأن تكون الأراضي والقرى غرب نهر العاصي مناصفة بين السلطان الظاهر بيبرس والاسبتارية، ويجتهد كل طرف ويحرص على عمارة بلد المناصفات، ويحكم فيهم بشريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم بمقتضى دولة الاسبتارية بحصن الأكراد(٢٩).

وبعد أن تمت كتابة الهدنة ووقع عليها السلطان، سير لاستحلاف مقدم الاسبتارية عليها الأمير فخر الدين المقري، والقاضي شمس الدين بن قريش(٣٠).

---

٢٧. هذه المدة بالسنوات الهجرية لعقدها بالقاهرة ، ولقوة الطرف المسلم وضعف الطرف الصليبي، ولم تذكر المصادر سببا لتحديد المدة بهذا الشكل، وربما كان هذا هو السائد في هذا العصر لأن كثير من الهدن خلال هذه الفترة كان بنفس المدة . القلقشندى – صبح الأعشى – جـ ١٤ ص ٣١ وما بعدها.

٢٨ . اشترط السلطان في الهدنة السابقة مع الاسبتارية سنة ١٢٦٦م إسقاط القطائع عن حماة وطائفة الإسماعيلية وبلاد أبي قبيس ، وبذلك لم يعد المسلمون في أي مكان يدفعون قطائع أو إتاوة للصليبيين.

٢٩– النويري – نهاية الأرب– جـ ٣٠ ص ٢٩٦ .وسوف نذكر إن شاء الله – نص هذه الهدنة كاملاً في ملاحق الكتاب.

٣٠– النويري – نهاية الأرب – جـ ٣٠ ص ٢٩٨.

ونلاحظ من خلال هذه الهدنة أمرين:

الأول طول مدة الهدنة على عكس الفترة الأولى في الحملات الصليبية حيث كانت مدة الهدنة لا تزيد عن ثلاث إلى خمس سنوات على الأكثر، ولعل هذا يرجع إلى رغبة الصليبيين لضعفهم، ورغبة المماليك أيضاً لوجود خطر آخر مازال قائماً وهو الخطر المغولي في فارس والعراق.

والأمر الثاني حرص السلطان الظاهر بيبرس على عدم عقد الهدنة والصلح مع الصليبيين جميعاً في وقت واحد، وإنما كان يهادن بعض الحكام ويحارب البعض الآخر، بل إنه كان يهادن بعض المدن ويحارب البعض الآخر داخل الإمارة الواحدة، بعد أن انفرط عقد وحدتهم، وتمتعت كل مدينة باستقلال ذاتي، وهو ما سنلاحظه في الحديث عن علاقته بصور وبيروت.

وقد حافظ السلطان والاسبتارية على الهدنة لمدة عام واحد فقط ثم بدأ التحرش بين الطرفين مما أدى إلى نقض الهدنة وسيطرة السلطان على حصن الأكراد.

فقد حدث في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م أثناء قيام السلطان بغارة على طرابلس أن كتب السلطان إلى نائب حمص أن يقيم فرقة من عساكره عند حدود حصن الأكراد، للدفاع عن المناطق التابعة للهدنة مع الاسبتارية من أي غارة تقوم بها باقي القوى الصليبية، وأثناء مرور نائب حمص بقواته دخل بعض جنوده بستان مجاور لحصن الأكراد، وأخذوا منه بعض الفواكه، فهجم عليهم أحد قادة الصليبيين التابعين للحصن، فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر، فأرسل نائب حمص إليهم يطلب الأسرى، فرد عليه القائد الصليبي رداً سيئاً، ورفض عودة

الأسرى، فلم علم السلطان بيبرس بهذا الأمر أرسل إلى قائد حصن الأكراد يطلب منه التحقيق في الواقعة، ولكن القائد الصليبي رفض التحقيق وأغلق أبواب الحصن وجهز جنده للقتال.

فلما رجع السلطان من طرابلس متوجهاً إلى حمص مر بالقرب من حصن الأكراد فأرسل إليه القائد الصليبي يقول له: " ما كان يبغي لكم تعبرون من هاهنا إلا بأمري" فأرسل إليه السلطان يسأل: لأي معنى غلقتم الأبواب ولبستم العدد، وانتم في صلح؟ فقال: ما غلقناه إلا شفقة على عسكر السلطان من الفرنج الغرب الذين عندنا، لأنهم لا يخافون الموت[٣١].

وكان هذا الرد بمثابة تهديد للسلطان، واستهانة من القائد الصليبي به، وخاصة أن السلطان كان يعلم أن القوة الصليبية بالحصن قليلة لا توجب هذا الغرور أو تدفعهم لنقض الهدنة، لذلك أضمر السلطان هذه الإهانة في نفسه، حتى تحين له الفرصة للرد عليها، وقد حانت بالفعل سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م عندما كان السلطان في حماة فتوجه بنفسه في أربعين فارس، وصعد جبل حصن الأكراد فخرج له جماعة من العساكر الصليبية بالحصن فقتل بعضهم وفر الباقون، وأرسل إلى قائد الحصن يطلب منه أن يخرج له الفرنج الغرب الذين قال عنهم: لا يخافون الموت، فما نحن أكثر من أربعين فارساً بأقبية بيض- أي غير مجهزين بكامل عدتهم – فلم يخرج له أحد فقام بتدمير ما حول الحصن، وفي العام التالي سنة ٦٦٩هـ ١٢٧١م زحف السلطان بجيوشه على الحصن، وحاصره ما يقرب من شهر حتى استسلمت حاميته، وأرسلوا

[٣١] -النويري – نهاية الأرب – جـ ٣٠ ص ٣٢٥.

بأمان من السلطان إلى طرابلس، وسيطر السلطان بذلك على الطرق المؤدية إلى طرابلس[٣٢].

أما حصن المرقب فقد سارع مقدم الاسبتارية به لتأكيد الهدنة مع السلطان بعد أن رأي ما حل بحصن الأكراد–وهو من أقوى الحصون الصليبية بالشام – فاشترط عليه السلطان ألا تجدد عمارة بالمرقب، وأن تكون جميع غلات وموارد بلاد المرقب مناصفة بين الاسبتارية والسلطان، وأن لا يأخذوا أي مناصفات من البلاد الإسلامية، فوافق الصليبيون على ذلك، وتمت كتابة هدنة جديدة بهذه الشروط[٣٣].

وانضم إلى هذه الهدنة مقدم الداوية في قلعة انطرسوس وقد وافق السلطان له أيضا على الصلح مقابل استرجاع بعض البلاد التي سيطر عليها الداوية في انطرسوس أيام حكم الناصر يوسف الأيوبي، وأن يترك أي مناصفات يأخذها من البلاد الإسلامية، وأن لا يشمل هذا الصلح أي قلاع أخرى للداوية غير أنطرسوس[٣٤] .

ولم تحدد المصادر مدة لهذه الهدنة، والراجح أنها كانت عشر سنوات، وهو ما كان شائعاً حينذاك، وقد حافظ الطرفان على هذه الهدنة حتى نهايتها سنة ١٢٨١م وبالطبع كانت سبباً في بقاء حصني المرقب وانطرسوس في يد الصليبيين، وتأخر سيطرة المسلمين عليهما في الوقت الذي كانت تتهاوى فيه الحصون الصليبية أمام سيوف المسلمين، كما استفاد المسلمون من هذه الهدنة بالحصول على نصف موارد بلاد

---

٣٢ -المقريزي – ج١، ص٥٩١، رانسيمان، ج٣، ص٥٧٢.

٣٣ -العينى – ج٣ ص ٧٢.

٣٤- المقريزي – ج ١ ص ٥٩١.

المرقب، والتفرغ للسيطرة على غيره من الحصون واسترجاع بعض البلاد التي كانت في يد الصليبيين.

العلاقة بين السلطان بيبرس ومدينة صور وأعمالها:

كان يحكم صور وأعمالها منذ سنة ١٢٤٠م فيليب مونتفورت الذي يعتبر علماً من أعلام الصليبيين خلال هذه الفترة، وكان الرجل القوي الذي يستطيع الصليبيون أن يعتمدوا عليه وقت الشدة، وكان يتميز بحنكته السياسية التي مكنته من الحفاظ على إمارته من العواصف التي كانت تهب حينذاك عل الصليبيين من جانب المماليك، إذ حافظ على الهدنة معهم حتى انتهت مدتها سنة ١٢٦٦م، ولم يحاول خلالها استفزاز المماليك أو إثارتهم، بل إنه رفض إقامة تحالف مع المغول بقيادة كتبغا أثناء غزوهم للشام سنة ١٢٥٩م ضد المماليك، لأنه رأي أن المغول برابرة لا يقلون خطراً عن المسلمين على بلاده، رغم أن هناك العديد من الأمراء الصليبيين كان متحالفين مع المغول آنذاك[٣٥].

كما أنه حاول التحالف مع المماليك للقيام بهجوم مشترك ضد عكا سنة ١٢٦٣م، ولكنه خشي استثارة عداء الرأي العام المسيحي إذا تحالف مع المماليك المسلمين، فعدل عن مشروع التحالف[٣٦].

وقد بادل السلطان بيبرس فيليب مونتفورت الإعزاز والتقدير، ورأى فيه حاكماً قديراً وسياسياً بارعاً، وحافظ على الهدنة معه، ولم يهاجم بلاده أثناءها، رغم إرساله العساكر للهجوم على معظم القلاع والحصون

---

٣٥ د/ سعيد عاشور – الحركة الصليبية – جـ٢ ص ٨٩٧.

٣٦ المقريزي – جـ ١ ص ٤٨٨، د/ سعيد عاشور – الحركة الصليبية – جـ ٢ ص ٨٧٨.

الصليبية، وعندما انتهت الهدنة سنة ١٢٦٦م انتظر السلطان حضور رسل من قبل حاكم صور يطلب تجديدها ولكنه تباطأ في ذلك.

ثم خرجت فرقة من حامية صور، وانقضت على قلعة الصبيبة الإسلامية بالقرب من دمشق فقتلوا أحد قادتها وهو السابق شاهين، وكان غلاماً للسلطان بيبرس، فأرسل السلطان فرقة من العسكر بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار، والأمير عز الدين أوغان، للهجوم على مدينة صور، فغنموا وأسروا كثيراً من أهلها، كما توجه السلطان بنفسه على رأس جيش كبير فتح به حصني هونين وتبنين التابعين لإمارة صور(٣٧).

فسارع حاكم صور بإيفاد الرسل إلى السلطان يسألونه تجديد الهدنة، فعنفهم السلطان وقال لهم: أنا ما فعلت ما فعلت إلا لأنكم قتلتم السابق شاهين غلامي، وإذا قمتم بديته استمرت الهدنة(٣٨).

وقد وافق الرسل على ذلك، وتم إحضار أولاد السابق شاهين الذين طلبوا ديته خمسة عشر ألف دينار صورية، فدفع الرسل نصفها واستمهلوا السلطان في الباقي، ورغبة منهم في التقرب إلى السلطان أحضروا معهم بعض الأسرى المسلمين وأطلقوا سراحهم تقرباً للسلطان(٣٩.).

ثم طلبوا من السلطان أن يعيد إلى إمارة صور حصني هونين وتبنين

---

[٣٧] المقريزي – جـ١ ص ٥٤٥، د/ سعيد عاشور – الحركة الصليبية – جـ٢ ص ٩١٠.

[٣٨] النويري – جـ ٣٠ ص ٢٩٦.

[٣٩]– العينى – جـ٢ ص ٩.

والبلاد التابعة لهما- والتي سيطر عليها السلطان قبل ذلك بقليل- ولكن السلطان رد عليهم بقوله: "إن تبنين وهونين وبلادهما بلاد أخذتها بسيفي وصارت للإسلام فاستقرت للمسلمين"[٤٠].

فوافق الرسل على أن تشمل الهدنة باقي البلاد التابعة لصور وهي تسعة وتسعون قرية، وتمت كتابة الهدنة التي تضمنت وقف أعمال القتال بين الطرفين وحرية تنقل التجار، وتبادل الأسرى، وأن تكون مدة الهدنة عشر سنين تبدأ من شهر رمضان سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م[٤١].

وبعد أن حلف السلطان على الهدنة أرسل رسل من قبله إلى فيليب مونتفورت حاكم صور ليحلف على شروط الهدنة أمام رسله، وهنا حدث أمر جديد لم نلاحظه من قبل وهو أن حاكم صور حلف على بعض فصول الهدنة وأسقط فصولاً لم يحلف عليها[٤٢].

بينما المعتاد أن يحلف على الهدنة بكافة شروطها، أو يرفضها بالكلية، فلما علم بذلك السلطان تغيرت نفسه على حاكم صور، وبدأ يراقب تصرفاته وينتبه لتحركاته.

ولعل ما دفع حاكم صور لذلك رفض السلطان عودة حصني تبنين وهونين لإمارة صور، وهما من الحصون الهامة اللازمة للدفاع عن إمارة صور.

على أيه حال استمرت الهدنة بين الطرفين مدة عامين فقط ثم نقضها أهل صور سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م بقيامهم ببعض الأعمال التي

٤٠- النويري - جـ ٣٠ ص ٢٩٧.

٤١- العينى - جـ٢ ص ٩.

٤٢- النويري - ج ٣٠ ص ٣٢٠.

تنقض الهدنة، فقد أشاعوا خبر موت السلطان ونشروه في الإمارات والبلاد الصليبية، وأثناء ذلك توجه السلطان إلى الشام فجاءت له إمرأة، وذكرت أنها كانت أسيرة في صور ومعها بنت لها وأنها اشترت نفسها وبنتها بمال حصلت عليه من أوقاف دمشق، وكتب لها الفرنج كتاباً بذلك، ولما خرجت من صور، ووصلت بالقرب من قلعة صفد التابعة للمسلمين، لحق بها جماعة من حامية صور وأخذوا البنت، منها ونصروها، فغضب السلطان غضباً شديداً وأرسل إلى حاكم صور يطلب هذه البنت فاعتذروا بأنها تنصرت، ورفضوا إرسالها(٤٣).

ويذكر العينى رواية أخرى مشابهة للرواية السابقة، وهي أن أمراة قدمت إلى السلطان وذكرت له أن ابنها تاجر دخل إلى صور في ظل الصلح والأمان معهم ولكن صاحبها الفرنجي غدر به وقتله، وأخذ ماله(٤٤).

ولعلها حادثة أخرى غير السابقة، ولم يكتف الصليبيون في صور بذلك، وإنما هاجموا بلدة النواقير بالقرب من قلعة صفد، وأسروا جماعة من أهلها، وأحضروهم إلى حاكم صور، فأمر بقتل اثنين منهم، وسجن الباقين، فأرسل السلطان يطلبهم، فرفضوا، وأصروا على عدم إرسالهم، فلم يعد هناك شك في فسخهم الهدنة، وعدم التزامهم بها، فتوجه السلطان بنفسه على رأس جيشه إلى مدينة صور، وقام بغارة عليها، فغنم منها غنائم كثيرة، وقتل عدداً من جنود حاميتها، وأسروا منهم جماعة، ولم يكتف السلطان بذلك، وإنما جهز فرقة من الجند بقيادة

---

٤٣ -المقريزي – جـ ١ ص ٥٧٩، النويري – جـ ٣٠ ص ٣٢٠.

٤٤- العيني – ج٢، ص٤٤.

الأمير جمال الدين المحمدي لترابط بالقرب من مدينة صور، فتأخذ ما حولها من غلال، وتمنع أهلها من الخروج، وتقطع وصول الميرة والمؤن عنهم[٤٥].

ثم لم يلبث أن قتل اثنان من الباطنية (الإسماعيلية) حاكم صور فيليب مونتفورت سنة ١٢٧٠م، فجاء مقتله خسارة فادحة للصليبين في الشام، ويتهم رانسيمان الظاهر بيبرس بأنه هو الذي دبر اغتيال فيليب مونتفورت حتى يضعف الفرنجة في الشام، لأنه كان من أبرز باروناته، وكانت استجابة الباطنية للسلطان رد جميل له، لأن فتوحاته خلصتهم بما التزموا به من دفع الجزية للاسبتارية[٤٦].

ورغم أنه ليس لدينا من الأدلة ما نثبت به هذا الاتهام أو ننفيه إلا أننا نرجح أن تحريض السلطان للباطنية ليس هو الدافع الرئيسي لقتلهم فيليب مونتفورت، وإنما دافعهم الرئيسي هو نقمتهم على الصليبيين لمحاولتهم التحالف مع المغول[٤٧] العدو الرئيسي للباطنية والذي دمر معاقلهم في فارس، وقتل الآلاف منهم وعلى رأسهم زعيمهم ركن الدين خور شاه[٤٨].

وبذلك يكون الباطنية في غير حاجة لتحريض بيبرس لهم بفرض

---

٤٥ المقريزي – جـ ١ ص ٥٧٩، النويري – جـ ٣٠ ص ٣٢١.

٤٦ –رانسيمان – ج٣ ص ٥٧٠.

٤٧ –جرت مفاوضات عديدة بين الصليبيين والمغول للتحالف معا ضد عدوهم المشترك المتمثل في المسلمين. حسن الأمين – الإسماعيليون والمغول – ص ١٤٦.

٤٨ –د/ السيد الباز العريني – المغول – ص ٢١١ ، حسن الأمين – الإسماعيليون والمغول – ص ١٣٤.

وجوده لقتل فيليب مونتفورت، ولكن يدور هنا سؤال: لماذا اختار الباطنية حاكم صور رغم أن مفاوضات التحالف مع المغول كانت مع معظم الأمراء الصليبيين؟

ونرد على ذلك بأن فيليب مونتفورت كان أعظم أمراء الصليبيين آنذاك والذي يمكن له توحيد جبهة الصليبيين في الشام تحت لوائه، وبذلك يكون مقتله أكبر خسارة للصليبيين جميعاً في الشام، وليس في إمارة صور وحدها، فوقع اختيارهم عليه.

وإذا فرضنا بأن بيبرس هو الذي حرض الباطنية على قتله فليس هذا اتهام يشينه، ويوجب الدفاع عنه، لأن حاكم صور رغم حكمته السياسية والتي اكتسب بها في أول الأمر تقدير السلطان إلا أنه في أواخر حكمه أقدم على ما يستحق عليه القتل، فقد قتل تجاراً آمنين، ولم يحترم عهوده التي عقدها مع السلطان مما يوجب قتله قصاصاً لمن أمر بقتلهم.

وقد تولى ابنه يوحنا مونتفورت الحكم بعده، ورغم أنه كان يفتقر إلى ما اشتهر به أبوه من التجربة والهيبة إلا أنه بدأ حكمه بالحرص على تقوية علاقته بهيو الثالث ملك قبرص ومملكة بيت المقدس في عكا، وفي نفس الوقت سعى إلى مهادنة السلطان بيبرس، فأرسل إليه وفداً من قبله يطلب عقد الصلح معه، فوافق السلطان على طلبهم بشرط أن يكون لحاكم صور عشر قرى فقط من القرى التابعة لصور، ويأخذ السلطان منه خمس قرى يختارها تتبع سلطانه، وباقي القرى التابعة

لصور تكون مناصفة بين السلطان وحاكم صور(٤٩).

وبعد أن وافق رسل حاكم صور على هذه الشروط تمت كتابة الهدنة سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، وحلف السلطان على تنفيذها، ثم أوفد رسلاً من قبله إلى حاكم صور فحلفوه على الهدنة بكافة شروطها(٥٠).

ولم تحدد المصادر مدة هذه الهدنة إلا أنه في الراجح أنها كانت عشر سنوات حيث كانت هذه المدة هي الشائعة في عقد الهدنة حينذاك – كما سبق وذكرنا– ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن العشر سنوات التالية لعقد الهدنة لم يحدث فيها أي خلاف أو أحداث تنقض شروط الهدنة من كلا الطرفين، كما نشطت التجارة بين التجار المسلمين وتجار صور خلال هذه الفترة، وتنقل المسلمون في صور بكامل حريتهم(٥١).

وبهذه الهدنة أمن السلطان جانب إمارة صور وحكامها، وتفرغ لغيرها من الإمارات الصليبية، بينما استفادت القوى الصليبية في صور ببقائهم في صور فترة أطول من غيرهم، إذا أن صور كانت من أواخر البلاد الصليبية التي سيطر عليها المسلمون.

العلاقة بين السلطان بيبرس وإمارة بيروت

كانت أعظم انتصارات السلطان بيبرس الحربية استعادته مدينة أنطاكية عام ٦٦٦هـ، والتي تُعد من أكبر الإمارات الصليبية في بلاد

٤٩- العينى – ج٢ ص ٨١.

٥٠- النويري – جـ ٣٠ ص ٣٣٣.

٥١- المقريزي – ١ ص ٦١٥.

الشام[٥٢].

وكان لاستعادتها بداية النهاية للبناء الصليبي في بلاد الشام، فقد تحطمت معنويات الصليبيين بدليل أن بعض الإمارات الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس، وكان لهذه السياسة الودية نتائجها الإيجابية على مملكة بيروت حتى عام ٦٦٥هـ.

وهي تعتبر من أهم الهدن التي أبرمت مع الصليبيين، وكان من حماس بيبرس في جهاد الصليبيين أنه لم يخل عام من الأعوام العشرة ما بين (٦٥٩ – ٦٦٩هـ) إلا وكان يشن فيه حرباً، ويسترد أرضاً من أراض إحدى الإمارات الباقية بأيديهم[٥٣]؛ فقد كان يستعيد منهم بعض المعاقل والمدن الإسلامية.

وكان السلطان بيبرس يتمتع بدهاء سياسي كبير؛ إذ حرص على عدم محاربة الصليبيين جميعاً في وقت واحد، وإنما هادن بعضهم، وحارب البعض الآخر[٥٤].

وقد عقد هدنة مع يوحنا كونت يافا ويوحنا سيد بيروت سنة ٦٥٩هـ[٥٥]، وكتب لهما منشوراً بما تحت يدهما في البلاد وتم تبادل الأسرى بينهم[٥٦].

وحدث أن توفي يوحنا أبلين سيد بيروت سنة ٦٦٢هـ، وتولى الحكم

(٥٢) المقريزي: السلوك، ج١/ ٥٦٨.
(٥٣) ابن كثير. البداية والنهاية، ج١٣ / ٢٤٤.
(٥٤) عبدالغني زهرة. النص التاريخي، ٢٠٥.
(٥٥) المقريزي. السلوك، ج١/ ٥٢٧.
(٥٦) العيني. عقد الجمان، ج٥/ ٣١٦.

بعده ابنته الكبرى إيزابيلا أبلين، وقد أوصاها أباها قبل وفاته أن تحافظ على العلاقة الودية التي وضع أساسها مع السلطان بيبرس، فنهجت على سياسته، وكانت ترسل بين كل فترة وأخرى الهدايا للسلطان بيبرس(٥٧).

وللتأكيد على حرصها على استمرار الهدنة والعلاقة الودية بين الطرفين عملت على كسب ود السلطان؛ فكانت ترسل له الهدايا لتحقيق ذلك، ولتبين مدى رغبتها في استمرار العلاقات الحسنة والودية بينهما(٥٨)؛ ولكي تأمن جانبه وتكسب مساعدته، وقد تبين ذلك من خلال حرصها على الاعتماد عليه، فقد ذكر ابن الفرات بأن الملكة كلما عزمت على السفر ومغادرة بيروت ذهبت بنفسها إلى السلطان بيبرس واستودعته بلادها حتى عودتها(٥٩)؛ وذلك بالاعتماد عليه في حراسة مملكتها في فترة غيابها؛ مما يدل على ثقتها الكبيرة فيه.

وقد نجحت سياستها هذه في تجنب مملكتها خطر حملات السلطان بيبرس، الذي قاد حملات حربية متتالية لاستعادة مناطق عدة في بلاد الشام بدأها عام ٦٦٣هـ، باستعادة قيسارية وأرسوف، وفي عام ٦٦٤هـ استعاد صفد وهونين وتبنين والرملة(٦٠).

ثم كانت أعظم انتصاراته الحربية، وهي استعادة مدينة أنطاكية سنة

---

(٥٧) المقريزي. السلوك، ج١/ ٥٤٦.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) ابن الفرات. تاريخ ابن الفرات، ج٧/٣٥.

(٦٠) المقريزي. السلوك، ج١/٥٥٠، سعيد عاشور. مصر في العصور الوسطى، ٤٥٦، رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/٣٧٨.

٦٦٦هـ[٦١]، والتي تُعد من أكبر الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وكان استعادتها بداية النهاية للبناء الصليبي في بلاد الشام[٦٢].

وكان لهذه السياسة الودية التي اتبعتها ملكة بيروت نتائجها الإيجابية على مملكتها حتى عام ٦٦٥هـ، عندما تأثرت هذه السياسة بتصرف أخيها الأرعن، وذلك عندما قام بالهجوم على مراكب للمسلمين في البحر المتوسط يملكها أحد قادة المماليك، وتحمل عدداً من التجار المسلمين، والتي كانت في طريقها إلى قبرص، فاستولى على ما فيها من بضائع وأسر التجار، ولم يكتف بذلك فحسب بل دحر المراكب بإغراقها في البحر[٦٣].

ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى ملكة بيروت شعرت بأن هذا التصرف الأرعن من أخيها سيؤثر على علاقتها الودية مع السلطان بيبرس، فحاولت التخفيف من هذه الحادثة، واعتبارها حدثاً عرضياً، وأعادت كسب ود السلطان، وذلك بإرسال الهدايا إليه، والتقرب منه، وإعادة ثقته لاستمرار الهدنة بينهما، إلا أن السلطان بيبرس قد تأثر بما فعله أخيها بالتجار المسلمين، ولم يرض عن ذلك، فلم يقبل الهدايا واشترط على رسلها لاستمرار الهدنة إطلاق سراح التجار، ورد أموالهم إليهم، وليس هذا فحسب بل تعويضهم عن مراكبهم التي أغرقت، وعندما تعهد الرسل له بذلك قبل هديتها ووافق على طلبها في استمرار الهدنة

---

(٦١) المقريزي. السلوك، ج١، ٥٦٨.

(٦٢) سعيد عاشور. مصر في العصور الوسطى، ص ٤٥٦.

(٦٣) النويري. نهاية الأرب، ج٣/ ٢٩٧.

مشافهة فقط[٦٤]؛ وذلك حتى يتثبت من وعد الرسل له في إطلاق سراح التجار وإعادة أموالهم، وتعويض صاحب المراكب؛ وهذا بسبب عدم ثقته بقدرة المملكة على إقناع أخيها بتحقيق تلك الشروط.

وهذا ما حدث بالفعل؛ حيث إن الملكة لم يكن لها سلطان على أخيها، بدليل أنها لم تفِ بوعد الرسل للسلطان إلا بعد عام من الحادثة، وهذا يدل على ذكاء السلطان بيبرس وحرصه على مصالح المسلمين، فلو قبل بعهد الرسل وحرر الهدنة لما تمكن من إطلاق سراح التجار.

وعندما تمكنت الملكة بعد عام تقريباً من الحادثة من تحرير التجار المسلمين من يدي أخيها وإرسالهم مع المال والهدايا الخاصة للسلطان، تم كتابة الهدنة بينهما[٦٥].

وبالرغم من وفاة السلطان بيبرس سنة ٦٧٦هـ، فقد حافظ الصليبيون على الهدنة المعقودة بينهم منذ عصر السلطان بيبرس، ولم يحاولوا استغلال الظروف التي مرت بها دولة المماليك عقب وفاته[٦٦]، فقد استمرت المهادنات بينهم وذلك لحاجة الطرفين إليها[٦٧].

وهكذا اهتم السلطان بيبرس بتأمين حدوده، وإعلاء شأن دولته أمام الصليبيين، وهذه هي الصورة الدبلوماسية المشرقة للسلطان بيبرس، والتي اتخذها في حروبه التي لم تنقطع مع الصليبيين، فقد قام بتنظيم البريد بين القاهرة ودمشق، وأصبحت الأخبار تصله مرتين في الأسبوع،

---

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) المقريزي. السلوك، ج١/٥٨٠.

(٦٦) عبدالغني زهرة. الهدن والمفاسخات، ٢٤٣.

(٦٧) أحمد عدوان. المماليك وعلاقاتهم الخارجية، ٨٦.

وهذه هي الصورة الدبلوماسية للسلطان بيبرس، والتي كان يعمل بها في حروبه من عقد معاهدات وصلح مع الصليبيين.

أما بالنسبة لبيروت فقد بقيت تحت حكم أسرة دي أبلن حتى استطاع السلطان خليل بن قلاوون استعادتها من الصليبيين وذلك سنة ٦٩٠هـ(٦٨).

نص الهدنة كما ورد عند القلقشندي(٦٩):

نسخة هدنة عُقدت بين السلطان الملك الظاهر (بيبرس) وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في الشهور سنة سبعة وستين وستمائة حين كانت بيدها وهي:

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين (بيبرس) وبين الملكة الجلية المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سبعة وستين وستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام

(٦٨) المقريزي. السلوك، ج١/ ٥٨٤-٦٠٠.

(٦٩) القلقشندي. صبح الأعشى، ج١٤/١٣٩. وأنني لم أجد نص الهدنة كــاملاً إلا في كتاب صبح الأعشى وإن كانت بعض المصادر قد تطرقت لها. إلا أنها لــم تكتبها نصاً كاملاً كما وردت عند القلقشندي، وبناءً عليه أخذتها كما ذكرها ولا ننكر ما له من فضل كبير على التاريخ الإسلامي.

الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها: من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وانطياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والد كوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقة، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن ساير أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان وهي: الحميرة وأعمالها، وقلاعة وبلادها، وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها، وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكار وما هو منسوب إليها، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها وقلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها وقلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها: بثغورها، وحصونها، وممالكها، وبلادها، وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك:

المذكورة وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده، ويد نوابه، وغلمانه، يكون داخلاً في هذه الهدنى المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد، وإليها، آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها: براً وبحراً، وليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها، وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان، ومن جميع نوابه وغلمانه، ومن هو تحت حكمه وطاعته: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً: في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين. وإن عدم لأحد من الجانبين مال، أو أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة.

وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف وإلى تلك الولاية المدعي عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعي عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي، وأخذ ما يدعيه، وإن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره، فارس بفارس، وبركيل ببركيل، وراجل براجل، وفلاح بفلاح، وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال، ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك، وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقضها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد من الجانبين. وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق، في تاريخ كذا وكذا.

تحليل نص الهدنة ونقده:

وإذا أمعنا النظر في هذه الهدنة نجد ما يلي فيها:

لقد أجاز الدين الإسلامي مبدأ المعاهدات مع الأعداء في حالتي السلم والحرب، وعقد المسلمون معاهدات صلح عديدة، وحرصوا على الالتزام بشروطها[٧٠].

والهدنة في اللغة هي: المصالحة. يُقال: هادنه يهادنه مهادنة، إذا صالحه، والاسم هدنة، ويراد منها الموادعة، ومعناها المصالحة[٧١].

وهناك قواعد وشروط لهذه المعاهدات والهدن وهي:

---

(٧٠) منذر الحايك. العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، ص٣٩.

(٧١) انب منظور. لسان العرب، ج٦/٤٦٣٨، ابن قدامة. المغني ج١/٢٥٠.

١- أن يعقدها الحاكم مباشرة أو من ينوب عنه.

٢- أن يكون في عقد الهدنة مصلحة للمسلمين، مثل إسلام الأعداء أو قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال[٧٢].

٣- أن لا يكون في الهدنة شرط مخالف للدين الإسلامي[٧٣].

٤- عقد الهدنة على مدة معلومة، ولا يجوز عقد هدنة أبدية؛ لأنها تعطل الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين[٧٤].

يتبين لنا من نص هذه الهدنة ما يلي:

- يذكر نص الهدنة أسماء المتعاهدين، ويحدد أطراف البلاد بينهم، ومدة الهدنة، وذكر البلاد والمدن التي تنص عليها هذه الهدنة.
- يتبين في نص المعاهدة التمكن اللغوي لكاتبها حتى إنه لم يترك شاردة ولا واردة، ولا كبيرة ولا صغيرة فيها مصلحة للمسلمين دون تدوينها والاهتمام بها، والإشارة إليها.
- مما يدل على دقة حرص كاتبها على رعاية حقوق المسلمين بالرغم من عدم ذكر كاتب هذه المعاهدة في كتب

---

(٧٢) الإمام الشافعي. الأم، ج٤/١١٠.

(٧٣) ابن حجر العسقلاني. فتح الباري، ج٥/ ٣٨٥.

(٧٤) الإمام الشافعي. الأم، ج٤/ ١١٠، انظر: صلاح المنجد. النظم الدبلوماسية، ١٧٤-١٨١، ومنذر الحايك. العلاقات الدولية، ص ٤٠-٤١.

التاريخ والآداب، وهذا يبين مدى ما وصل إليه التطور في ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية في عصر المماليك.

- **نصت الهدنة على العمل بها، والالتزام بعهودها، والوفاء بها إلى آخر مدتها من الطرفين، لا ينقصها مرور زمن، ولا يغير شروطها حين ولا أوان.**
- **لقد أوضحت هذه المعاهدة حدود دولة المماليك التي تشمل مصر، ومعظم بلاد الشام، بالإضافة إلى المناطق التي سيفتحها السلطان بيبرس أثناء استمرار الهدنة، ويسيطر عليها من باقي الأمراء الصليبيين.**
- **كذلك حددت حدود مملكة بيروت في الجبال والبلاد.**
- **كما حددت مدة الهدنة على أن تكون عشر سنين متوالية، كما أنها أكثر دقة في تحديد اليوم والشهر والسنة بالهجري والميلادي.**
- **أن الهدنة حققت شرط الفقهاء بأن يكون فيها مصلحة للمسلمين، تمثل ذلك بأن تكون إمارة بيروت على الحياد أثناء جهاد السلطان بيبرس مع باقي الإمارات الصليبية في بلاد الشام.**
- **أن لا تُقدم مملكة بيروت أي مساعدات للإمارات الصليبية في الشام أثناء حربها مع المسلمين.**
- **أن تمنع مملكة بيروت الصليبيين من مهاجمة المسلمين من بيروت والبلاد التابعة لها.**
- **كما تضمنت هذه الهدنة حماية المترددين من المسلمين والصليبيين في المناطق التابعة لمملكة بيروت أو المناطق**

التابعة للسلطان بيبرس، على أن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من الملكة وغلمانها، وجميع من هم في حكمها، وعلى طاعتها، براً وبحراً، وليلاً ونهاراً، ومن جهة السلطان بيبرس.

- كما راعت الهدنة مصالح التجار في البلدين، فمنحتهم الأمان، وتأمين طرقهم، وأيضاً منحتهم فترة انتقالية بعد انتهاء الهدنة، ينعم فيها التجار بالأمان مدتها أربعين يوماً لتصفية أعمالهم التجارية في بلاد الطرفين قبل أن يعودوا إلى بلادهم.
- وإذا أمعنا النظر في هذه الهدنة، يتضح لنا بالرغم من طول مدتها إلا أنها كانت في مصلحة الطرفين، فمن ناحية السلطان بيبرس آمن جهة بيروت، وتفرغ لجهاده مع الإمارات الصليبية الأخرى، وأتاح لرعاياه فرصة الحرية التجارية.
- كما تبين لنا من هذه الهدنة أن السلطان بيبرس حرص على تصفية الصليبيين في بلاد الشام، وفق إستراتيجية عسكرية منظمة متتالية، كل مرحلة يتلوها الأخرى، مما اضطره في بعض الأحيان إلى تحييد جبهة من الجبهات حتى يتم له تنفيذ إستراتيجية عسكرية.

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذا البحث بحمد من الله ومنه، نلخص أهم النتائج:

١- أن الهدن التي عُقدت بين المسلمين وغيرهم تتم وفق شروط الفقهاء.

٢- أن الهدن كانت لصالح الطرفين فى أول الأمر ثم بدأ السلطان بيبرس يفرض فيها شروطه.

٣- راعت الهدن رعايا الجانبين.

٤- تبين لنا مدى اتساع الدولة المملوكية في عهد السلطان بيبرس حيث ضُمت معه بالإضافة إلى أجزاء كبيرة من بلاد الشام.

٥- أوضحت هذه الهدن أنها لم تقتصر بشروطها على الجانبين السياسي والحربي، بل شملت الجانب الاقتصادي أيضاً، فقد استمرت السفارات والعلاقات الدبلوماسية والتجارية بين البلدين دون انقطاع.

٦- بينت هذه الهدن أن العلاقات الحربية بين المسلمين والصليبيين في عصر المماليك قد صاحبها فترات سلمية تفرغ كل طرف لمصالح أخرى.

٧- بينت هذه الهدن مدى التطور الحضاري الذي شهدته دواوين الدولة الإسلامية كديوان الإنشاء.

٨- عني السلطان بيبرس أيضاً بالتجارة، وسعى لتأمينها، فازدهرت التجارة في عصره وعم الأمان ربوع دولته.

وهذه تُعد من أمثلة المعاهدات والهدن التي كان لها أثر كبير في التاريخ الإسلامي التي كانت بين السلطان الظاهر بيبرس والإمارات الصليبية، والعلاقات بين الدول الإسلامية والقوى الصليبية في بلاد الشام.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- البخاري: محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٥م.
- ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الرياض للتراث، ١٩٨٦م.
- الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر. مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.
- الشافعي: أبو عبدالله محمد بن إدريس. الأم، مطبعة بولاق، سنة ١٣٢١هـ.
- ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر – باكستان ١٩٥٥م .
- العيني: بدر الدين محمود. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٧م.
- ابن الفرات: ناصر الدين محمد عبدالرحيم. تاريخ ابن الفرات، ١٩٤٢م.
- ابن قدامة: المغني – دار الغد العربي ١٩٩٥ م.
- القلقشندى: صبح الأعشي في صناعة الإنشا –نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية .
- ابن كثير: البداية والنهاية – دار الفكر العربي ١٩٣٣م .
- أبو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي– ت ٨٧٤هـ .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – طبعة مصورة عن طبعة

دار الكتب .
المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي – تحقيق د . نبيل محمد عبد العزيز – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي. السلوك لمعرفة دول الملوك، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، دار المعارف.
- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ياقوت الحموى: معجم البلدان – دار صادر ببيروت ١٩٨٦م.

ثانياً: المراجع:

- أحمد محمد عدوان. المماليك وعلاقاتهم الخارجية، دار الصحراء السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٠٥هـ.
- حسن الأمين – الإسماعيليون والمغول. بيروت ١٩٩٧م.
- رانسيمان. ستيفن. تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، سنة ١٩٨٢م.
- سعيد عاشور.

الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤م.

الظاهر بيبرس – القاهرة ١٩٦٣م .

مصر في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٠م.
- سهيل طقوش– تاريخ المماليك.(دار النفائس ببيروت

١٩٩٧م).

- السيد الباز العريني – المغول

- صلاح المنجد. النظم الدبلوماسية.

- عبد الرحمن أمين صادق – علاقة مملكة حماة بدولة سلاطين المماليك(القاهرة ١٩٩٦م).

- عبدالغني عبدالفتاح زهرة.

النص التاريخى والوثيقة. مكتبة الرشد ١٤٢٨هـ.

الهدن والمفاسخات بين المسلمين والصليبيين. مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٧هـ.

- منذر الحايك. العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية. الأوائل، دمشق، ٢٠٠٦م.

- نعمان الطيب سليمان – جهود المماليك في تصفية الوجود الصليبي القاهرة ١٩٨٥م.